حول استقلال الكلمات
فى المعاجم
للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى بك

لا أزال أتذكر الحيرة الشديدة التى تملكتنى عندما تصفحت المعاجم العربية الحديثة قبل سنوات . فقد كنت أريد تزويد ابنى بمعجم صغير يرجع إليه فى معرفة معانى الكلمات من جهة ، ورسم حروفها من جهة أخرى ؛ فاستشرت جماعة من معلمى العربية وعلمائها عن أحسن المعاجم المختصرة التى تحقق هذا الغرض . . . غير أنى ، عندما قلّبت صحائف المعاجم التى دلّونى عليها وقعت فى حيرة ، إذ وجدتها جميعها مرتبة على نمط المعاجم القديمة ، وسائرة على خططها ، لأنها ترتب الكلمات بحسب موادها الأصلية ، ولا ترامى ترتيب الحروف الهجائية إلا فى تلك المواد ...

وحيرتى هذه تحولت إلى دهشة شديدة عندما أفضيت بها إلى جماعة المعلمين والعلماء ، ووجدتهم يحارون لحيرتى ويستغربون لاستغرابى ، كأن الأمر من الأمور الطبيعية التى لا داعى للحيرة فيها ، ولا مساغ للاعتراض عليها ...

ودهشتى هذه وصلت إلى أقصى حدودها عندما رأيت هؤلاء ينبرون للدفاع عن خطط تلك المعاجم . . . إذ قال أحدهم :

— ولكن اللغة العربية لا تشبه سائر اللغات ...

وقال آخر :

— إن طبيعتها تختلف عن طبيعة تلك اللغات ...

وما كدت أستفيق من الحيرة التى أوقعتنى فيها هذه الكلمات حتى هممت بالرد قائلاً :

— وما علاقة المعجم بطبيعة اللغة ؟ إن الغرض من المعجم هو ترتيب الكلمات ترتيباً معقولاً ، يضمن الوصول إلى إيجاد الكلمة المطلوبة بأعظم ما يمكن من السرعة والسهولة . ولا شك فى أن هذه السرعة والسهولة لا تحصلان إلا بترتيب الكلمات بحسب حروفها الهجائية . ومن البديهى أن هذه ليست من الأمور التى تختلف بين لغة وأخرى بوجه من الوجوه .

غير أن معلماً ثالثاً اشترك فى البحث سائلاً :

— يعنى ، تريد أن تكتب مثلاً كلمة الاستغفار فى مادة الألف ، وكلمة الغفران فى مادة الغين ؟

قلت بدون تردد : نعم

فقال المعلم بلهجة المؤمن المعتقد الذى يثور على أمثال هذه البدع :

— ولكن هذا لا يجوز فى اللغة العربية ...

فسألته : لماذا ؟

فأجابنى بحيرة ظاهرة :

— لأننا إذا فعلنا ذلك لا يتعلم الطلاب ، مثلاً ، أن الاستغفار من باب الاستفعال ، وأن مادته الأصلية هى غفر . . .

فحاولت أن أقنع مخاطبى ببعض البراهين ، فقلت :

— إن لتعليم هذه الأمور ألف وسيلة ووسيلة ... حتى إن المعجم الذى أتصوره وأقترحه يكون — هو أيضاً — من أحسن الوسائط لذلك : يدرج القاموس كلمة الاستغفار فى المحل الذى يتطلبه ترتيب حروفها الهجائية ، ويذكر بجانب الكلمة مادتها الأصلية . . . فيجد الطالب الكلمة فى المعجم بكل سهولة ، ويتعلم — فى الوقت نفسه — من قراءة ما كتب عنها أن مادتها الأصلية هى غفر ، وأنها تدل على طلب المغفرة ...

سكت مخاطبى كما سكت زملاؤه . غير أننى لمحت فى أعينهم ما يدل على أن هذا السكوت لم يتأت من الاقتناع ، بل تأتى من الاعتقاد بأن كل اعتراضاتى هذه ما هى إلا نتيجة عدم إلمامى بقواعد العربية الإلمام الكافى ، وعدم فهمى لخصائصها الفهم اللازم ...

* * *

مضى على هذه المناقشة أكثر من عشرة أعوام . . . ثم عدت إلى قضية المعاجم — فى هذه الأيام — مرة أخرى ، وعلمت — فى حيرة جديدة — أن اللغة العربية لم تحظ إلى الآن بمعجم عصرى بالمعنى الذى يفهم من كلمة المعجم فى جميع لغات العالم . . . كما علمت بأن المجمع اللغوى الملكى نفسه لم يقدر

أهمية هذه القضية حق قدرها ، ولم يدخلها فى عداد الأعمال التى يسعى لتحقيقها ...

فرأيت من الواجب على أن ألفت أنظار علماء العربية ومعلميها إلى هذا الأمر الهام من فوق منبر (الرسالة) الغراء ، وأن أدعوهم إلى العمل على إزالة هذا النقص الفادح

إن المعجم بمثابة مخزن للكلمات ، معد لمراجعة جميع الناس ، بحيث يستطيع كل شخص أن يدخل هذا المخزن فيتناول منه الكلمة التى يقصدها ، دون أن يحتاج إلى مساعدة أحد يدله على موضعها ... ولهذا السبب تصنف الكلمات فى هذه المخازن العامة تصنيفاً يضمن إيجاد ما يراد منها بأسرع الطرق وأسهلها . ولهذا السبب يختلف التصنيف المعجمى عن التصنيف الصرفى والنحوى اختلافاً كليًا، ويكون هذا التصنيف ألفبائيًا ـ بوجه عام ـ لكى يستطيع كل فرد أن يجد أية كلمة من الكلمات فيه ، بمجرد تذكر ترتيب الحروف الهجائية فى الألفباء ...

غير أن المعاجم العربية تشذ عن هذه القاعدة العامة شذوذاً غريباً ، لأنها تصنف الكلمات تصنيفاً مُفعما بالالتواء والتعقيد ، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد كلمة من الكلمات إلا إذا عرف — مقدماً — مادتها الأصلية وكيفية اشتقاقها من تلك المادة بصورة تفصيلية

فلو أراد أحد أن يراجع المعجم فى كلمة « الاستيلاء » مثلاً ، فعليه أن يلاحظ قبل كل شىء أن هذه الكلمة من باب « الاستفعال » ، كما يعرف — سلفاً — أن مادتها الأصلية هى « ولى » ، وعليه أن يبحث عنها ـ مستنداً إلى هذه المعلومات ـ فى الصحائف الخاصة بحرف الواو فاللام . . . وأما إذا أراد أن يراجع المعجم فى كلمة « الاستواء » ، فعليه أن يعرف أنها من باب « الافتعال » وأن مادتها الأصلية هى « سوى » ، فعليه أن يبحث عنها — مستنداً إلى معلوماته هذه — فى الصحائف الخاصة بحرف السين فالواو . . . غير أنه إن كان لا يعرف ذلك فمن العبث أن يراجع القاموس ويقلب صفحاته ، لأن القواميس العربية لا تدل على مواضع مثل هذه الكلمات إلا لمن يعرف مثل هذه الدقائق الصرفية واللغوية حق المعرفة

أليس ذلك مخالفاً لأبسط قواعد التعلم ولأوضح مبادئ التعليم ... ؟

لنأخذ مثالاً آخر : لنفرض أننا طلبنا من أحد الطلاب أن يبحث فى المعجم عن كلمتى : الاستعانة ، والاستكانة ... إن هاتين الكلمتين متشابهتان ومتقاربتان من حيث اللفظ والكتابة ؛ فإن الحروف الثلاثة الأولى مشتركة فى كلتيهما، وكذلك الحروف الثلاثة الأخيرة ؛ والفرق بينهما ينحصر فى الحرف الرابع وحده ، مع كل هذا فإن موقع كل منهما فى المعجم يتباعد عن موقع الأخرى تباعداً غريباً جداً ؛ فعلى الطالب الذى يبحث عن هاتين الكلمتين فى المعجم ، أن يعرف أن الكلمة الأولى من باب « الاستفعال » من مادة « عون » فيراجع من أجلها حرف العين فالواو ؛ كما عليه أن يلاحظ أن الكلمة الثانية قد تكون من باب «الإستفعال» من مادة « كون» أو من باب «الافتعال» من مادة « سكن » ؛ فعليه أن يراجع حرف الكاف فالواو نظراً للاحتمال الأول ، وحرف السين فالكاف نظراً للاحتمال الثانى

وهل يمكن للمرء أن يتصور طريقة تصنيف أعقم من هذه الطريقة ، وخطة تبويب أسخف من هذه الخطة ... من وجهة مقتضيات العقل والمنطق من جهة ، ومطالب التربية والتعليم من جهة أخرى ؟

* * *

إن المعاجم العربية الموجودة بين الأيدى لا تزال تضع الاشتقاق فى الموضع الأول من الاعتبار ، فتهتم بأنساب الكلمات قبل كل شىء وفوق كل شىء ، كأنها لا تريد أن تعترف بشىء من حق الاستقلال للكلمات المشتقة ، مهما كان مبلغ تخصصها فى معنى من المعانى ، ومهما كانت درجة تباعد هذا المعنى الخاص عن المعنى الأصلى ... إنها لا تعترف لها بحق الاستقلال فى بيت خاص حتى ولو كانت قد أصبحت رئيسة أسرة خاصة ، ومنشأ ذرية كبيرة ، كأنها تريد أن تبقيها تحت وصاية مستمرة وتحتم عليها أن تسكن على الدوام ، فى دار « جدها الأعلى » مع جميع أفراد العشيرة التى تنتسب إليها ...

فلنترك الألفة المخدّرة جانباً ، ولنفسح لأذهاننا مجال التفكير الحر خارجاً عن الطرق المألوفة قليلاً : هل من المعقول أن نستمر على هذه الخطة فى معاجمنا ، ولا سيما فى المدرسية منها

هل من المعقول ـ مثلاً ـ أن نستمر على إدخال كلمة الصباح فى مادة الصبح ، فنتركها فى معاجمنا ضائعة بين كلمات الصباح ، والصباحة ، والصبوح والصبيحة والاصطباح والاستصباح ... ؟ وهل من المعقول أن نستمر على عدم اعتبار لفظة « الأنبوبة » كلمة قائمة بنفسها ، وعلى إدخالها فى درج الـ « نبّ » ونظل نطلب من أطفالنا وطلابنا أن يجدوها هناك ؟ وهل من الحكمة فى شىء ألا نوجد محلاً ملائماً لوضع كلمة « الميزانية » فى غير الخزانة المخصصة لمادة « الوزن » ... ؟

وعند ما أكتب هذه الأسطر يتوارد على ذهنى أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، كأنها تتسابق فى التباعد عن قواعد العقل والمنطق ومبادئ التربية والتعليم إلى أقصى حدود التباعد ...

إن كلمة الاستئناف — مثلاً — بالرغم من معناها الخاص الذى يلعب دوراً هاماً فى الحقوق والقوانين ، وبالرغم من كثرة المحاكم التى تضمى بها لا تزال تلتجئ فى المعاجم إلى ظل كلمة « الأنف » ! ...

وكلمة « الاستراحة » — التى يستعملها الناس فى كل يوم مئات من المرات — لا تزال محبوسة فى المعاجم فى دار « الراح » ، ومحشورة بين كلمات شتى المعانى والألفاظ : كالرياح والرائحة والأريحية والريحان ! ...

حتى أن كلمة « المدرسة » نفسها لم تكتسب فى معاجمنا حق الاستقلال ؛ فهى لا تزال تابعة — فى نظرها — إلى كلمة الدرس ومجبرة على الاندساس بين كلمات متخالفة النزعات مثل « اندراس » المعالم والمبانى و « دراسة » الحنطة والحبوب ! ...

وكلمة « الاقتصاد » التى أصبحت بمعناها الاصطلاحى الجديد من أهم محاور الحياة الاجتماعية — لا تزال مختفية فى معاجمنا بين الكلمات التى من طراز القصد والمقصود ، والقاصد والمقصيدة وبين المعانى التى تدل على موت الكلب ، واستقامة الطريق ، وأغصان الموسج ! ...

ولكن ، لماذا أطيل الكلام فى هذه الأمثلة العجيبة ؟ إن معاجمنا لم تعترف بحق الاستقلال ، حتى لكلمة الاستقلال نفسها ! فهى لا تزال تعتبرها تابعة لـ « قلّ » ، فتحتم عليها السكنى فى مسكن « القلة والقليل » ! ...

نعم ، إن كلمة الاستقلال التى تثير فى النفوس ما تثيره من العواطف الجياشة على الدوام ، والتى تتكرر فى القصائد الوطنية والأناشيد المدرسية كل يوم مئات ، بل آلاف المرات ... كلمة الاستقلال التى كان معناها ـ ولا يزال ـ سبباً لتضحيات كبيرة فى الجهود والأموال والأنفس ـ كلمة الاستقلال هذه لم تستقل فى معاجمنا إلى الآن .

فعلى كل من يود التعرف إليها فى القاموس أن يطرق باب الـ « قلّ » وأن يعرف أنه سيلاقيها بجانب كلمة « القليل » !

* * *

أنا لا أدرى بماذا أنعت معاجمنا لاتباعها هذه الخطط الموجاء ، وسكوت علمائنا عن هذه النقائص الفادحة . غير أننى أميل إلى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين أساسيين :

أولاً : عمل قانون الألفة الذى يجعل الإنسان لا يشعر بأكره الروائح ، ولا ينتبه إلى أفدح النقائص ، عند ما يألفها ألفة طويلة ، ولا سيما عند ما تكون ألفته هذه اجتماعية ...

ثانياً : عمل روح المحافظة التى تطلب إبقاء القديم على قدمه فتعطل نوازع العمل عند ما ترمى إلى تغييرات أساسية فى الأمور المقررة سابقاً ، ولا سيما عند ما تكون تلك الأمور متعلقة بالتقاليد الاجتماعية ...

إننى أستطيع أن أضيف إلى هذين العاملين الأصليين عاملاً فرعياً ثالثاً ، وهو عمل نزعة الاهتمام بالأمور الرنانة التى تلفت الأنظار ، أكثر من الانصراف إلى معالجة المسائل الجوهرية التى لا تأتى بنتائج تبهر الأبصار وإن كانت كثيرة الفائدة ...

إننى أعتقد أن الخروج على هذه العادات والنزعات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفاً ـ أصبح من أهم الواجبات التى تجب على رجال العلم والتعليم ، ومحافل اللغة والأدب ، ووزارات التربية والمعارف ـ فى جميع البلاد العربية ... كما أعتقد

أن وضع مثل هذه المعاجم العصرية التى تعترف باستقلال الكلمات ، وتجعل الوصول إلى كل واحدة منها من الأمور المتيسرة لكل شخص ـ لهو أهم بكثير من البحث عن الكلمات التى تقابل : التلفون ، والكاور ، والراديوم ... وحتى من إيجاد الاصطلاحات التى تدل على أسماء الأمراض ، ودقائق التشريح

وأما الخطة التى يجب السير عليها لوضع هذه المعاجم فهى بسيطة وجلية :

أولاً — يجب أن تبذل الجهود اللازمة لوضع معجم مختصر يحتوى على الكلمات التى يستعملها الناس ويحتاج إليها طلاب المدارس الابتدائية . ولتعيين هذه الكلمات يجب أن تستعرض طائفة من الكتب المدرسية من جهة ، وتدرس كمية من الأخبار والإعلانات المنتشرة فى الجرائد اليومية من جهة أخرى ؛ وتستحضر بطاقات خاصة بكل كلمة من الكلمات التى تصادف خلال هذا الدرس والاستعراض ؛ ثم ترتب هذه الكلمات حسب نظام حروفها الهجائية ، ويكتب إزاء كل واحدة منها معناها الاصطلاحى ، كما يشار إلى مادتها الأصلية ، وإلى كيفية اشتقاقها من تلك المادة. وأخيراً تذكر أهم الكلمات المشتقة منها، تسهيلاً لمراجعتها فى سائر أقسام المعجم

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تبذل الجهود اللازمة لتنظيم معجم أكثر تفصيلاً من ذلك ، ليكون مرجعاً لطلاب المدارس الثانوية والعالية ، ولرجال الطبقة المثقفة بوجه عام ، على أن تعين كلماته على طريقة استعراض الكتب المدرسية من جهة ، ودرس المجلات العلمية والأدبية من جهة أخرى

وأخيراً يجب أن يسعى لوضع معجم مفصل عام ... يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحديثة على اختلاف أنواعها وتواريخها ...

وأما المعاجم القديمة ، فتبقى كمراجع أساسية يرجع إليها العلماء والاختصاصيون

وأعتقد أنه لا يحق لنا أن نتوقع تقدماً حقيقياً فى تعليم اللغة العربية ما لم توجد مثل هذه المعاجم . . . ويجعل أمر « مراجعة المعجم » من الواجبات المدرسية ...

أنا لا أدرى كم يكون طول المدة التى ستمضى بين كتابة هذه الأسطر وبين ظهور المعاجم التى نشير إليها . . . كما لا أدرى ماذا يكون مبلغ ونوع مساهمة كل من الكتّاب والناشرين والهيئات العلمية والدوائر الرسمية فى تحقيق هذا المشروع المهم عن طريق العمل المباشر أو التشجيع والمساعدة ...

مع هذا أتمنى بكل قلبى أن تتضافر جهود الأفراد والهيئات والحكومات فى هذا السبيل — بكل الوسائل الممكنة — لكى تقر أعيننا بمعاجم عصرية من هذا القبيل ... قبل أن يمضى وقت طويل

(بغداد) أبو خلدون

برلين ، فبراير ١٩٣٥ بشر فارس

إنـــذار

لِمَ البكاء والاستعطاف والاستجداء ؟ إنما المرأة
ـ فى دخيلة نفسها ـ تهوى الرجل الذى يستخف بكبريائها

سَئِمتُكِ حتى سئمتُ النساءَ فأمسيتُ أخشى على هِزَّتى

جبينُكِ جفَّ عليه الجمالُ كرِهتُ المهابةَ باليَّتِ
وطرفُكِ يَزويه روْعُ الصراعِ إنِ التهبَتْ ثِرَّةً مُقلتى
ونَهدُكِ يحتالُ طَيْشى له تَدرَّعَ خُمْقَ الحياءِ العَتى
وخَصرُكِ خاذَلَه الرَّخصُ حتى تعاسكَ حَرْباً على صَبْوَتى
وساقُكِ لُفَّتْ بِشَفٍّ مصون تفاريجُه سُخْرَةُ المُشْتَهِ

مفاتنُكِ الفاترات أساطيرُ تَفْترُّ فى كُتُبٍ رَثَّتِ

برلين ، فبراير ١٩٣٥ بشر فارس